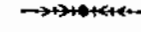


محمد إسعاف النشاشيبي

مدرسة أدبية

للدكتور أحمد فؤاد الأهواني



لو شئت أن ترى الأديب الذي يمد يده عن رانكا على «الأدب»
لكن عليك أن تسمى إلى لقاء إسعاف النشاشيبي في مجلسه .
ولكنه مات ، فاخفت بموته صورة فذة فريدة إن يظفر
التاريخ بمثلها . وقد تجد نماذج للكثير من أدبائنا البارزين ،
وصوراً تحاكي أساليبهم وطرائقهم وفكرهم ، ولكنك لن تعثر
مع التنقيب الشديد ، على صورة تشبه إسعاف ، مع كثرة تلاميذه
واحتفال مجلسه بالناس ، وإطلاع القراء على الإسلام الصحيح
من كتبه ، وشوق وحافظ وغيرهما من خطابه ، ونقل الأديب
كما كان يتابع نشره في الرسالة .

ذلك لأنه أعلى من المحاكاة ، وأسمى من التقليد .

ومع ذلك فهو الأديب الذي كما تمثلته تمثلت الأدب في
الجاهلية وصدر الإسلام كيف كان ، وكيف ينبغي أن يكون .
فقد قيل « إن الأدب أن تجمع من كل شيء بطرف » وكان هذا
شان إسعاف النشاشيبي : يحدّثك في الفقه والشريعة ، وآراء
المعتزلة وعلماء الكلام ، ونظريات الفلاسفة والحكّاء ، وطرائف
الكتاب ونوادر الشعراء ، مع امتلاك ناصية العربية وهي
كما تعلم من أوسع اللغات ، وإلمام بالأدب والعلم والفلسفة في أوروبا
الحديثة إلماً يدل على طول الباع وعظيم المنزلة .

فإن قلت : عندنا كثير من الأدباء يجمعون بين هذه المعارف ،
ويأخذون من كل شيء بطرف .

قلت : ولكنك لم تحظ بالاستماع إلى إسعاف ، فهو في
مجلسه وحديثه غيره في كتبه ومقالاته . والفرق بين هذا وذاك
هو الفرق بين المقروء والمسموع ، بين اللفظة وهي على الورق
جثة هامدة ، والمبارحة وقد خرجت من فم نملّ بالحياة ، وتنفذ
إلى القلوب ، وتستقر في الأسماع .

وهل كان الأدب في القديم إلا مجالس وأسواقاً ؟
وهو يفسد حين يؤخذ من الكتب ويحفظه التاديبون
كما تفعل البيهات .

يرى أن أفلاطون لم يدون دروسه في الأكاديمية ، لأن
العلم عنده لا يكون إلا سماعاً أو حواراً .

عرفت إسعافاً منذ بضع سنين في مجلسه بالسكوتية ،
فكان حلقة تضم صفوة الأدباء والشعراء وهو فيهم درة المقد ،
أو كأنه الشمس تحف به السكواكب .

فإذا جاء ذكر محمد عليه السلام ، قال إسعاف : الله أكبر
نبي الإسلام .

كان يتقنى بهذا الدين ، ويتقنهم بأهم الرسول .

وفي ذلك ألف كتابه « الإسلام الصحيح » . نفدت
طبعته ، وكان يفكر في إعادة إصدارها بإضافة شواهد وتعليقات جديدة
من خمسمائة مرجع . ولا يهولك هذا الرقم ، فهو حقاً عظيم
الإحاطة واسع الاطلاع .

أراد أن يهدي إلى هذا الكتاب ، ولكنه لم يكن يملك منه
نسخة واحدة . وسميت أن أجده منه نسخة فلم أعثر . وسمع
الأستاذ عادل زعتر بطلي فقال عندي نسختان فأرسل يطلب من
فلسطين واحدة هي الآن في حوزتي . تقرأ في استهلال الكتاب
« الإسلام هو الدين الحق [ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن
يقبل منه] ومحمد خير الخلق . وهذا الكتاب ، وهذا الأثر ،
وهذا تاريخ البشر فاقرأ كتاب كل دين ، وانظر أثر كل عظيم ،
وقتش صحف التاريخ . واحكم إن كنت من الحاكين » .

هذا شعر منشور .

وهذا كلام لا يجري به القلم أو ينطق به اللسان ، بل هو
سدى القلب ، وقبس من نور اليقين .

ما كنت أسمع في مجلسه إلا اعتزازاً بالروية ودفاعاً عن
الإسلام الصحيح . فهو حلقة أو مدرسة مرت روحه في
شباب الجيل .

طيب الله ثراه ، وأدخله فسيح الجنات .

أحمد فؤاد الأهواني